

لكي نتفحص تجارب غبرنا

٢ - المسرح في أوروبا

بين حربين

(في إنجلترا)

للأستاذ دريني خشبة

في الذهاب إليه (بالجملة) حيث كانت العائلات تقصد بكامل هيئاتها لشهود الروايات التمثيلية حاملة معها عشاءها أو غداءها فلا تجد بأساً من تناوله أثناء التمثيل . أما في روسيا وألمانيا فقد عرفنا رأى الاشتراكية في الفنون والآداب والأخلاق والأديان في الكلمة السالفة ، وعرفنا كيف خضع المسرح فيهما لخدمة الدعاية السياسية مما حاد به عن الجادة

فمن غير المقول أن ير في التأليف المسرحي في شعوب هذه حال الكثرة الساحقة من أفرادها ، وإذا قدر لنوع من التأليف أن يروج فيها فلا بد أن يكون النوع الذي ينحط إلى مقارلة هذه الأذواق الربضة والأعصاب المهوكة والأرواح المتعبة ؛ ومؤلف الدراما مضطر إلى أن ينصاع للخطة التي تملها عليه الظروف المسرحية والتي ترسمها وتتحكم فيها تقود ذلك الجمهور ، تلك التقود التي أتلفت الدراما الفنية وخلقت المسارح التجارية في طول أوروبا وعرضها ولا سيما في فرنسا وفي إنجلترا . إننا نردد في مصر دائماً أن واجب رجل المسرح سواء أكان مؤلفاً أو مخوفاً أو ممثلاً هو أن يرتفع دائماً بالجمهور لا أن ينحط إلى مستوى الجمهور ، ثم ننسى أن ذلك الارتفاع بالجمهور الذي ننادى به هو عمل شاق يتعرض دائماً لظروف تجعل المهمة تنتهي دائماً إلى الفشل الفريع ، لأننا نتماهى عن عيوب جمهورنا الذي كان ينبغي إصلاحه ونهيبته لشهود الروائع المسرحية . إن جمهورنا بثقافته التي لا تجعلها غير مستعد لشهود الدراما الهادئة التحليلية ذات القضايا التي تنتهي إلى نتائج ترضى العقل ولا تستفز القلب ، وتقع التفكير ولا تحرك العاطفة . ولقد حاولت الفرقة القومية المنحلة القيام بهذا العمل الجليل ، فإذا كانت النتيجة ؟ ... إنها لم تجد جمهوراً ... لأنها نسيت طبائع هذا الجمهور فلم تتأجلها الملاج المقول ولم تزخرف له من المفريات ما يجذبه بواسطته إليها ... ولو أننا الآن بسبيل الكلام عن المسرح المصري لخضنا في الحديث عن الفرقة القومية التي أدى إلى حلها ، كما أدى إلى إنشاء معهد التمثيل ، تفكير أسمى من أن يجادل على قصر النظر إن لم يدل على العمى المطلق الذي يصيب سياستنا الإنشائية دائماً ... ولما كان لهذا الحديث حينه إن شاء الله فنحن نرجئه لوقته ...

نحكم العامل الاقتصادي إذن في خلق المسرح التجاري في أوروبا جميعها ، وفي إنجلترا خاصة ، ولكي نلخص مديري

رأينا في الكلمة السابقة كيف علل إرفق عوامل الرقي والانحطاط في المسرح الأوربي بوجه الإجمال ، وعرفنا وجهة نظره في جمهور النظارة ؛ وسنرى كيف ربط وجهة نظره تلك بتأخر الدراما بعد الحرب الكبرى في أوروبا عامة وفي إنجلترا على وجه الخصوص ، ثم ما نشأ عن انحطاط حاسة هذا الجمهور الفنية من قيام المسارح التجارية التي أجهزت على البقية الباقية من السمو المسرحي الذي ورثته أوروبا عن جهايزة كتاب الدراما وشعرائها قبل تحول هذه القارة من الزراعة إلى الصناعة ، ثم ما صنعتته الحرب الكبرى من التحلل في أعصاب الأوربيين وما أفسدت به أرواحهم من انتشار الخلاعات في معظم شعوبهم ولا سيما في شعوب البحر الأبيض المتوسط أو الشعوب اللاتينية على وجه التخصيص

لم تعد تروج النساء في مسارح هذه الشعوب المحتاجة إلى ما يرفه عنها ... لقد فقدت إنجلترا قرابة المليون من زهرة شبابها النصف اليافع ، وقل الرجال في فرنسا التي فقدت في تلك الحرب الشئمة أكثر من مليونين ، وكان لغائبهم أوخم العواقب الاجتماعية والأخلاقية ، فقد فشت الخلاعة ، وانتشرت الرشوة ، ونفت السوق السوداء ، وخربت الأمم ، واختلت معايير الفضيلة ، وأصبحت الحياة الوطنية أبسط الجرائم التي تقترف دون مبالاة . أما في إيطاليا فقد خفت الحريات باسم الإصلاح الفاسسي ، ذلك الإصلاح السادي الذي ملأ روح الأمة بالخيلاء والزهو الكاذب وأفسد فيها مثل غارييلدي العليا .. وفي أسبانيا حدثت الفلافل التقليدية في تاريخها الفعم بالأعاجيب ، فطاح عرش ألفونسو ، وشبت الحرب بين الاشتراكيين اللتين تصطرعان الآن في روسيا وألمانيا ، وانصرف الجمهور عن المسرح بعد إذ كان يشارك الجمهور الإيطالي

المديرين لألقوه جميعاً من نوافذ مسارحهم ، إن لم يلقوه في شيء آخر داخل هذه المسارح (١١) وذلك لأن في رواية هملت ثلاثين بطلاً يقتل معظمهم ، ثم منظر هذا الشيخ الفزع كفيف يتمزق أعصاب الترفين من جمهور النظارة ... فالحلم ولهذا المهلكات التمثيلية ، وما جاءوا إلا ليلها هذا القوم الخفيف الظريف الذي لا يسيل دموعاً ولا ينكأ في القلوب أوجاعاً ! ولا شك في أن شكسبير كان يرتد على عقبيه كثير القواد كاسف البال فينطوى إلى الأبد على نفسه ، وتنضج عبقريته التي تألفت في عصر إليزابث هباءً متثوراً »

وقد عولج هذا الخطر في إنجلترا علاجاً جيداً ، إذ أنشئ في كل مدينة إنجليزية هامة مسرح من المسارح باسم The Repertory Theatre أو المستودع — إن جازت هذه الترجمة السقيمة — أو مسرح الروايات التي سبق تمثيلها . وتمتاز هذه المستودعات بقلة النفقات ، إذ لا يتجاوز مصروفات أحدها المائة من الجنيهات كما تتمتاز بتقاهة أجور الممثلين وثبات ما تنفقه على الناظر لأنه لا يتكرر إلا كلارث وأصبح غير صالح للاستعمال ، ثم هي معفاة تقريباً من مصروفات الإخراج . فمن أشهر تلك المسارح مسرح برمنجهام الذي يدين ببقائه لكرم الستر بارى جاكسون ؛ ثم مسرح منشستر The Gaiety Th. الذي كان يدين بوجوده للمسرح الكبيرة السخية التي تنفحه بها الآنسة هورنيان Miss H. تلك الإنجليزية العجيبة التي كانت تنفق من حر مالها على مسارح كثيرة حفظاً لها من الانحلال ؛ فمن تلك المسارح التي كانت تتم بأعطيائها مسرح دبلن بإيرلندة The Abbey Th. أما مسرح ليفربول The Playhouse فكان هو الآخر يعتمد في مواصلة أعماله على كرم اثنين من أسخياء الإنجليز ... وقد كانت معظم هذه المسارح تستمد قوتها من مسرح الكورت The Court بلندن الذي كان يأذن لها جميعاً في تمثيل رواياته بل كان يمدّها ببعض ممثليه ... على أن مسارح المستودعات كثيراً ما كانت تحيد عن تقاليدھا فتخرج روايات جديدة للمؤلفين البتدين . ومن هنا كانت قائدها الجزيلة في إظهار عبقریات إنجليزية لم تكن لتبرز إلى الوجود لو لا هذه المسارح . وحسبك أن تعلم أن برمنجهام كان الحقل الأول الذي نما فيه جون درنكووتر حيث أخرج له روايته المروفة (أبراهام لنكولن) ، كما نما فيه أيضاً شاعر الأوبرا المشهور (رتلاند باوتن) ؛ وأن مسرح دبلن كان الحقل

المسارح التجاوية في الانزلاق بالدرامة والمسرح في هذه الحقبة التي لم تكن تليق بأسمى الأعمال الفنية الثقافية . نذكر أن متوسط نفقات المسرح العادي في إنجلترا في الأسبوع الواحد هو أربعمائة جنيه ، ويقفز هذا المبلغ في مسارح الوست إند West End الإنجليزية إلى ١٢٠٠ جنيه أو ١٣٠٠ جنيه في الأسبوع ، إذ يقدر إيجار المسرح بما يتراوح بين ٢٥٠ و ٦٠٠ جنيه في الأسبوع الواحد ، ومتوسط إيجار أحد المسارح اللندنية اليوم هو ٤٠٠ جنيه في الأسبوع ، وبإضافة أجور الممثلين والإداريين ومسمى المناظر ومهندسي الإضاءة والحكم والمستخدمين الآخرين ورجال الأركسترا وأجور الإعلان والنور والتدفئة الصناعية وثمان الدراما وضريبة الملاهي (وإن تكن محتسبة على النظارة) يقفز المنصرف على المسرح أسبوعياً إلى ما ينيف على الألف جنيه بكثير . وإذا علمنا أن ثمن تذكرة الكرسي الممتاز هو ستون قرشاً (١٢ شلنك) ، وأن ثمن الكرسي العادي هو تسعة قروش عرفنا أن إيراد المسرح متوقف إلى حد بعيد على ثمن الكراسي الممتازة (الألوام والبنائير والكراسي الأمامية) وهي الكراسي التي يدفع ثمنها الأغنياء من الجمهور الذي وصفنا ، فإن لم يعمل مدير المسرح حساباً لذوق هؤلاء الأغنياء انصرفوا عنه بطبيعة الحال وتكون النتيجة المنطقية هي الخراب والإفلاس إذ تسقط الرواية من الوجهة الاقتصادية ، والمدير محتاج — كي يغطي مصروفات الإخراج فقط — إلى أن تباع جميع كراسيه في حفلات شهرين على الأقل ، لأن فترة الإخراج لا تدر عليه إيراداً ، وهي عادة تكلفه ثلاثة أسابيع ، أي أنها تكلفه حوالي أربعة آلاف أو خمسة آلاف من الجنيهات . ومن أطرف ما يورده إرفن بهذه المناسبة أن جميع المديرين في مسارح لندن ، بل في جميع المسارح الإنجليزية هم رجال مثقفون ثقافة ممتازة ، وهم لهذا ينجحون من أنفسهم كلما بالنوا في الإسفاف بالدرامة إلى حضيض التهريج والشعبذة ليضمنوا إقبال الطبقة الخاصة من هؤلاء الأغنياء التي تشتري التذاكر ذات الأثمان المرتفعة

« وليس أحب إليهم ، لهذا السبب ، من أن يقدموا للجمهور درامات من عصارة الفكر ولباب الفلسفة لو ضمنوا جمهوراً من الأغنياء الفلاسفة ؛ إذ لو تأخر الزمن بشيكسبير وأقبل بعد الحرب الكبرى وفي يده روايته الخالدة هملت ليعرضها على أحد هؤلاء

الأول الذى ازدهر فيه الماهل الدرامي الكبير جون . م . سينج Syngé والمستر لىكس روبنسن واللينى جريجورى . والذى بهمننا من هؤلاء الثلاثة هو سينج الذى يسمو إلى مرتبة شو فى المسرح الإنجليزى الحديث ؛ ولولا مسرح دبلن لما ظهر فى الوجود . وفى مسرح منشستر : ال Gaiety ظهرت عبقرية ستانلى هاوتن ، شارلز ماك إفوى Mc Evoy ومستر ألان منكهموس . وفى ليثربول تألق نجم المستر رونالد جينس الناقد المسرحى اللامع ... أما فى مسرح الكودرت بلندن فقد وثب إلى قمة المجد مستر شو وجولدورفى وجراشيل باركر وجون هانكن ... وكما كانت هذه المسارح وسيلة لإظهار هذه الطائفة الضخمة من كبار المؤلفين فكذلك كانت سبباً لظهور أكبر الممثلين الإنجليز . وقد كان مسرح ليثربول أعظم مدرسة إنجليزية لتخرج أحسن ممثلى الطراز الأول كما بدأ نبوغ المثلة الذائعة الصيت سيبيل ثورنديك فى مسرح منشستر وهى التى أصبحت درة مسارح الوسط إند فيما بعد ... وكذلك أخرجت تلك المسارح طائفة عظيمة من كبار المخرجين وعلى رأسهم المستر باسل دين Basil Dean ؛ كما أخرجت الكثيرين من مصورى المناظر وفى مقدمتهم المستر جورج هارس Harris

أما ما كان يباب على مسارح المستودعات هذه فجلمة أمور أهمها ضالة أجور الممثلين وضالة المكافآت التى كانت تمنحها للمؤلفين الناشئين - وكثيراً ما كانت المس هورنيان وغيرها من أسخياء الإنجليز هم الذين يشتررون الروايات الجديدة ويمنحونها للمسارح على سبيل الهدايا ومن باب التشجيع ، - وكانت هذه المسارح كلها متقاطعة فيما بينها ، فلا يتصل أحدها بالآخر ، ولا تقوم فرقتها بزيارات إقليمية ، وكانت عنايتها بالروايات الجديدة تافهة كما قدما . ولعل هذا كان سبباً فى تخليد تلك الثروة المتيدة الضخمة من الروائع المسرحية القديمة التى لولا مسارح المستودعات لاخفت إلى الأبد أو لأصبحت محبوسة فى بطون الكتب لمن شاء أن يقرأها لا لمن يحاول أن يمثلها أو يشهدها على خشبة المسرح فطمة فنية حية تتحرك بأشخاصها ومناظرها وعناصرها وموضوعها . على أن أكبر عيوب تلك المسارح هو الملل الذى ينسرب إلى نفوس النظارة من كثرة ما يشهدون ممثلها ،

إذ يتفق للتفرج أن يشهد الممثل ثلاثين أو أربعين مرة (هذا فى إنجلترا) فى السنة الواحدة ، وفى ذلك من الأملال لنفس التفرج ما فيه ، والتفرج - بل كل نفس بشرية - محتاجة إلى التشويق بالأشخاص الجدد حاجتها إلى الهواء الجديد والمناظر الجديدة والموضوعات الجديدة . ولعل هذا الركود فى وحدة أشخاص الممثلين هو الذى أوشتك أن يقضى على تلك المسارح بانصراف الجمهور عنها - ولعل هذا أيضاً هو أحد العوامل التى هونت على الجمهور المصرى شأن المسرح وسببت انصرافه عنه . وهم يقترحون لاستدراك هذا الخطر - فى إنجلترا طبعاً - تسهيل تزاور هذه الفرق ليعرض كل منها روايات فى مسارح البلدان الأخرى ، على ألا تتحمل الفرق مصروفات الانتقال أو أجور المسارح التى تزورها ما دام التزاور سيكون على قاعدة التبادل النفسى ... ومن عيوب مسارح المستودعات أيضاً سرعة تغيير البرنامج الذى يقتضيه الفرار من إملال الجمهور المتشوق إلى رؤية الجديد دائماً ... وسرعة تغيير البرنامج تؤدي إلى أخطار كثيرة منها عدم عناية الممثل بدوره لكثرة إرهاقه بالعمل . وكان المسرح الألمانى يتخلص من نتيجة ذلك بتمثيل الرواية الواحدة فى أكثر مسارح ال Preperitory فى وقت واحد ولدة طويلة معينة ربما امتدت إلى أكثر من خمسة عشر أسبوعاً ، وبذلك يضمن ربها معقولا للمؤلف الذى تخصص له حصة معلومة من جميع المسارح ، كما يضمن الراحة لجميع أفراد الممثلين الذين يتمكنون بذلك من أداء أدوارهم على خير وجه مضمون . على أن الألمانين ، قبل الحرب الكبرى ، كانوا يعرفون للمسرح قدره ، وقد ضاقوا بيطء الأساليب المسرحية الإنجليزية فأنشأوا مسارحهم الخاصة على منوال جديد وذلك بتشييد المسارح الشعبية الحرة Free People's Th. التى كانت بولايات المدن الكبرى تمدها بإعانات على جانب كبير من السخاء كما كانت هى تتألف عن طريق الاشتراك من آلاف الأعضاء الذين كانوا يمنحون امتيازات عظيمة لشهود الروايات ، وكان أجر الدحول لا يتجاوز الخمسة قروش قط ، كما كانوا ، مقابل جنيه واحد فى السنة ، يحصلون ، يحصلون على مجلة مسرحية ثقافية ويملكون الحق فى شهود عدة محاضرات ثقافية تلقى